بين الورق والدوح

[رسالة مهداة إلى المسيو « دى كومنين »]

للدكتور زكى مبارك

حدثت قرائى غير مرة أن ذاكرتى فيها انحراف غريب : فهى ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام ، وقوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعانى ، ولها قدرة عجيبة على تمثل الملامح والأصوات والألوان ، فمن السهل أن أصف حادثاً رأيته قبل عشرين سنة ، مع الإحاطة بما لابسه من دقائق التفاصيل ، ولكن من الصعب أن أتذكر رقماً سمعته قبل يومين ، إلا أن يتصل بأمر تلتفت إليه الذاكرة بعض الالتفات ، ولأجل هذا أقيد ما يهمنى من الأرقام فى دفتر خاص

وفى هذه اللحظة أتذكر جيداً كيف شهدت عدوان الخريف على آثار الربيع ، ولم أكن شهدت ذلك العدوان قبل أول أيلول قضيته فى باريس ، وأتذكر أيضاً كيف كانت قدماى تخبّان فى أوراق الأشجار وأنا أخترق حديقة « لكسمبور » ، وأكاد أتمثل كيف انتشيت حين رأيت ذلك المنظر الجميل ، وما هو فى الظاهر بجميل ، ولكنه أعاننى على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسى ، ففيه ألوف من صور العدوان البغيض ، عدوان الخريف على آثار الربيع ، بلا تهيب ولا استحياء

وفى يوم عاصف جلست تحت « الدوح » وهو ينظر بحزن إلى تساقط « الورق » ، فوعيت من حواره أحاديث لن أنساها ما حييت . وكيف أنساها وقد زلزلت قلبى ، وأطلعتنى على بعض ما كنت أجهل من سرائر « الأدواح » و « الأوراق » ؟

سمعت « الدوح » يقول فى صراخ مبحوح :

« إلى أين يمضى هذا الورق الساقط ؟ وكيف جحد جميلى عليه ؟ حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء ، وحرمت نفسى عذوبة التمتع بضحوة الشمس فى الربيع ، ونشوة القيظ فى الصيف ، ليجد الفرصة لتذوق النعيم ، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

« لقد [illegible] كيف شاء ، ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه ، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من اللهّمين ، فهل عرف الورق الساقط أننى حرمت نفسى نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟ »

وسكت « الدوح » لحظات ، ثم صرخ من جديد :

« والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم ، وأننى سأحتاج إليه لدفع عوادى البرد والجليد ، فهو يتخلع عنى ، ليتركنى بلا غطاء ، فى قر الشتاء ! »

ويسمع الورق أنين الدوح فيهتف :

— ما عتبك على أيها الدوح ؟ ما عتبك على وقد بذلت فى البر بك غاية ما أملك ؟ ألا تذكر أنى صبرت على مصاحبتك فى السيطرة والاستعلاء شهوراً من الزمان ؟ ألا تعرف أنى عققت من أجلك أمنا الأرض ؟ فما ذنبى إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم ، وهى أيضاً تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد ؟

وسمع الدوح هتاف الورق فأجاب :

— الأرض أمى وأمك ، ولكنى فهمت عنها ما لم تفهم ، فقد حدثتنى ألف مرة أنها لا تريد أن يرجع إليها غير الأمهات من أبنائها الأعزاء ، فإن كنت مت أيها الورق فارجع إلى أمك الأرض !

فزجر الورق :

— أنا مت ؟ أنا ؟ وهل يموت من يرجع إلى حجر أمه الغالية ؟

فيقول الدوح :

— نعم ، ثم نعم ، يموت من يرضى بأن تدوسه الأقدام ، ولن يكون لك نصيب غير الدوس ، يا جهول !

وهنا قال الورق للدوح :

— هل تنسى أنى أدفأتك فى الصيف ؟

فقال الدوح للورق :

— لم أكن أحتاج إلى دفء فى أشهر الصيف ؛ وإنما أحتاج إلى الدفء فى أشهر الشتاء

فقال الورق للدوح :

— لا أستطيع سماع موتك وأنت مجلل بالسواد

فقال الدوح للورق :

— إنما تجللت بالسواد حداداً عليك . ألا تذكر أننى كنت

أحبك حباً هو الغاية فى الكرم ، لأنه حب القوى للضعيف ؟ ألا تذكر أنى كنت أقاوم العواصف والزوابع لأقى خدودك ذلة الالتصاق بالأرض ؟ ألا تعرف أننى أعانى لفراقك كروباً لا تطاق ؟

قال الورق :

« أتحبنى إلى هذا الحد ، أيها الدوح ؟ »

فتأوه الدوح ثم أجاب :

« لا أحبك لأنك ورق ، فأنت تعرف أنى صبرت على تقلب الأوراق أربعين عاماً أو تزيد ، ولن أموت يوم أموت بسبب تقلب الأوراق — وإنما أحبك لأننى أنشأتك كما يحب الله هذا الوجود ، فأنت بعض ما صنع دمى أيها الورق ، ولن تعيش بعد فراق إلا بفضل ما سكبت فى عروقك من الدم النفيس ، وقد حل عليك غضبى ، فلا بقاء لك بعد اليوم ... وهل تستطيع أن تطب لما صنعت بنفسك أيها الورق الساقط ؟ لقد دعوتك إلى الترفق بمصيرك فلم تسمع ، ومن أجل غفلتك لبست عليك ثوب الحداد ، ولم أستغرب من فرحك بمصافحة الأرض ، فأنا أعرف أنه لا يرحب بالاستبلاء غير الأقوياء ، كما أعرف أن الأم لا ترحم من أبنائها غير الضعفاء »

قال الورق :

« وبأى حق تستطيل على ، أيها الدوح ، وأنت أسود مظلم ، لا ترجى لك صحوة ولا معاد ؟ »

قال الدوح :

« ذلك سواد الشباب ، يا أحمق ، وليس سواد الحداد[1] ، ولن تقيم الحياة لدلالك أى ميزان ، وهل تطول حياتك حتى ترى ازدهائى بالورق الجديد فى الهوى الجديد ؟ إن الدم الذى سوّاك ، سيسوى ورقاً سواك ، وسأعيث هذا العبث بالأوراق إلى أن أبلغ الثمانين أو التسعين ! »

قال الورق :

« خذنى إليك ، أيها الدوح ، فقد اشتقت إلى ساعدك القوىّ المتين »

فأجاب الدوح :

« تعال إلى ، إن استطعت ، أيها الورق الساقط ، فأنا لا أملك البعث كما أملك الإنشاء ، وهل أملك مساماة صاحب العزة والجبروت ؟ »

وتكلف الورق ما لا يطيق ليرجع إلى الدوح من جديد ، ولكنه عجز عن تحقيق ما يريد ، وتلك نهاية من يجهل السر فى تمتعه بشرف الوجود ، والشرف معناه الارتفاع ، وقد انحط الورق بسقوطه على الأرض ، فأمسى وهو ضعيف مهين

ثم قال الدوح :

— لن نلتقى بعد اليوم ، أيها الورق الساقط ، وكيف نلتقى وأنا أجد عناء فى التعرف إلى هويتك ؟ وهل أراك إلا وهماً يصوره الرفات المسحوق ، مع قرب العهد بالفراق ؟

فأجاب الورق :

— ستجدنى فى الربيع المقبل

قال الدوح :

— سأجد فى الربيع المقبل ورقاً غيرك

قال الورق :

— كنت أنتظر أن يكون فى سخطك علىّ ما يزهدك فى جميع الأوراق

فصاح الدوح :

— كان ذلك لو أنى أردت الانتفاع بالتجارب ، والانتفاع بالتجارب يدل على العقل ، ولكنه يشهد بضعف الحيوية ، والخير أن نواجه الحياة فى كل يوم بأحلام الناشئين ، لا بعقول الكهول ، لتبدو لنا الحياة بكراً فى كل لحظة ، كما تبدو الغابة المؤذنة بالوحشة والأنس فى كل حين . ولو أنى اكتفيت بما جربت من أخلاق الورق لكان من المستحيل أن أراك ، بعد أن عرفت ما عرفت من شمائل سواك

قال الورق :

— وأستطيع أنا أيضاً أن أغفل الانتفاع بالتجارب وأرجع إليك فى الربيع المقبل

فضحك الدوح وقال :

— وهل كانت لك معى تجارب أيها الورق ؟ هل رأيت منى مايعاب حتى تزعم أنك فارقتنى عن عتاب يمحوه التفضل بالإعتاب ؟ أنا الذى أنشأك ، وأنا الذى رباك ، وأنا الذى أوحى إليك معانى الشوق إلى الندى والضياء ... أنت لم تفارقنى لأنى جفوتك

(١) هذه مغالطة من جانب الدوح ، فقد اعترف قبل سطور بأنه ليس السواد حداداً على الورق ، وسنرى بعد سطور أنه لفراق الورق حزين .

أو أسأت إليك ، وإنما فارقتني لأنك ضعفت عن صحبتي ، كما يضعف السحاب عن مصاحبة الجبال

قال الورق :

— خذني إليك ، أيها الدوح ، لأذوق من دمك ما كنت أذوق

فأجاب الدوح :

— عيب الأقوياء أنهم لا يصفحون عن المذنب ولو عفّر جبينه بالتراب ، وأنت أيها الورق الساقط جحدت جميلي ، فلن أراك بعد اليوم ولو استشفعت بأزهار الربيع

قال الورق :

— وهل يكون الورق الجديد أجمل مني أو أصدق مني ؟

فأجاب الدوح :

— لن يكون أجمل منك ولا أصدق منك ، فتجارب أربعين سنة دلتني على أنكم جميعاً من وحل واحد ، ولكن الورق الجديد سيلقاني وهو على جانب من الغفلة والجهل ، والغفلة والجهل يزيدان في قيمة الجمال ، فإذا تعاقل وتعالم ، كما تعاقلت أنت وتعالمت ، فسيكون مصيره إلى أمه الأرض ، وأستريح منه قبل أن يستريح مني

قال الورق

— أيكون معنى هذا الكلام أن لك سياسة مرسومة في امتهان الأوراق ؟

فأجاب الدوح :

— معنى هذا الكلام أني أحقد حقداً أبدياً على من يجحدون المعروف . لقد قضيت أربعين سنة أو تزيد في تعهد الأوراق بالرفق والعطف ، فما حفظت ورقة عهدي ، ولا اعترفت بجميلي . . . ويعزيني أن الله ينتقم لي فما انخلعت عني ورقة إلا كتب الله عليها الذبول والفناء

قال الورق :

ومع هذا فأنت لفراق حزين ، باعترافك في بداية هذا الحوار ، وهذا الحزن هو انتقامي من غطرستك وكبريائك ، وأنا أتوعدك بقول أحد الشعراء :

سأنساك فانظر كيف تحيا إذا انقضى
نصيبك من روحي وحظك من قلبي

ونظر الدوح فلم ير الورق ، فأين ذهب ؟ أين ؟ أين ؟

لقد عصفت الريح فأطارت ما كان في « لكسمبور » من أوراق ، وباد ما تعاقر الحديقة من « خشخشة » كانت أروع ما سُمع من الغناء في باريس[1]

قال الراوي :

وكنت فتى مصرياً لم يسمع مثل هذا الحوار بين الورق والدوح ، فمصر الوفية لا تشهد انحلال الورق عن الدوح في خريف أو شتاء بغض النظر عن الأشجار المجلوبة من بلاد لا تعرف خلائق وادي النيل

قال الفتى المصري :

وتسمعت ما يقول الدوح بعد ذهاب الورق فوعيت هذه الكلمات :

— إلى أين ذهبت أيها الورق ، وكنت الشاهد على أن الضعف من عناصر الجمال ؟ إلى أين ذهبت وكان عطفي عليك دليلاً على أني من الأقوياء ؟ إلى أين ذهبت وبفضلك سمعت تغريد الحمائم والبلابل والعنادل ، ولم أر بعد ذهابك غير وقر الجليد في « أعوام » الشتاء ، وكل يوم في الشتاء بعام أو عامين لمن يعيش بلا أليف ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

— لو كنت أملك من أمري ما يريد الهوى لخلعت العذار في البحث عن الورق الذاهب ، ولكن الطبيعة التي أمدتني بالقوة قيدتني بالوقار ؛ فأنا جاثم في مكاني ، وإن كان هواي في بلد بعيد بعيد ، وآه ثم آه من المراعاة لما يوجب التغافل عن الهوى المشبوب !

وسمعته يقول :

— سقط عني الورق ، لأنه ضعف عن مصاحبتي في أيام

(١) الخشخشة كلمة فصيحة ، ولها عندي شواهد

عدد الرسالة الممتاز
يصدر في أوائل شهر فبراير
فارتقبوه

الشدائد ؟ وهل يطالب الضعيف بما لا يطيق ؟ فما عتبي عليه وهو أضعف من أن يقاسمني المصاعب في أيام الشتاء ؟ وهل يتوهج الجمال إلا في أوقات اللين والصفاء ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

«ألا يمكن آلهامي بإرغام الورق على أن يصير إلى ما صار إليه ؟ كان في مقدوري أن أضاعف له الكمية المبذولة من دمي ، ولكنني جهلت الواجب فارتضيت أن يعيش في الخريف بمثل ما كان يعيش في الربيع . ولو أني ضاعفت له الدفء لكان من الممكن أن يفكر في حفظ الجميل ، والدنيا أخذ وعطاء ، ولو كره الأوفياء »

قال الفتى المصري وهو يحاور قلبه بعد سماع ذلك الاعتراف :

لقد نطق الدوح بالقول الفصل ، وأجاب عن هذا السؤال :

« ما الذي يمنع من أن نعيش كما تعيش بعض الأشجار التي تخلع أوراقها في الخريف لتكتسي بأوراق جديدة في الربيع ؟ »

وما وجهت إلى نفسي هذا السؤال إلا بعد أن عانيت ألوف المكاره من الوقوف عند حالٍ واحد في الحب والبغض ، والاقتراب والابتعاد . والأوراق هي العواطف فما بالنا نحرص حرص الأشحاء على استبقاء تلك الأوراق ، وفيها ما يصل إلى الذبول والجفاف ، ومن الخير أن نخلعه بلا رحمة ولا إشفاق ؟ ما بالنا نحرص عليها حين تتصل بأحباب يصعب عليهم أن يقاسمونا شتاء الزمان ؟

إن الله لا يضن على الشجر بالورق الجديد عند قدوم الربيع ، فهل يضن علينا بالهوى الجديد عند استهلال الرخاء ، وقد عرفنا من كرم الله ما لا تعرف الأدواح والأوراق ؟ وهل يملك الدوح من الحيوية عند سقوط الورق مثل الذي تملك من الروحانية عند خمود الوجد ؟ أكاد أجزم بأن الماء المكنون في الشجرة العارية من الورق لا يقاس إلى الجمر المكنون في القلب الخالي من الحب ، فنحن والشجر إلى ربيع قريب ، وإن استطال الشتاء

وبعد لحظات عاد الفتى المصري إلى محاورة القلب

— الدوح مجلل بالسواد ، والسواد شارة الحزن ، فما بال الدوح يحزن وهو غاية في القوة ؟

— الحزن من علائم القوة ، وليس من علائم الضعف ، فهو دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد ، ولا يقع ذلك إلا ونحن أقوياء ، والجهلة هم الذين لا يفرقون بين الحزن والذهول

— وكيف ؟

— أنسيت ما قرأناه لأناطول فرانس من أن للموت نتيجة لضعف الـ vitalité

— أذكر ذلك ، ولكني أخشى أن يكون الحزن هو أيضاً نتيجة لضعف الحيوية

— أنت مخطئ في هذا التأويل ، فالحزن هو صوت الشهوة إلى النعيم المفقود ، والشهوة لا تصدر عن النفس إلا في حالة الفتوة والأريحية والطغيان

— وإذن فما بال جماعات من خلق الله تندد بالمحزونين ؟

— كما تندد جماعات من خلق الله بالفرحين !

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أقول إن الحسد هو الذي يحمل بعض الناس على التنديد بأهل الأحزان والأفراح ، وما قام في الدنيا أدب ولا مجد ولا سلطان إلا بفضل ما في عاطفة الحزن أو الفرح من ثورة واشتعال

— أتريد أن أحزن ، يا قلبي ؟

— أريد أن تفرح بالحزن الصادق ، فقد كان شعار الأنبياء ؛ أما الحزن الكاذب فهو شعار المتصنعين . إن للحزن آداباً يجهلها أكثر الناس ، ومن آداب الحزن أن يصدر عن عاطفة لا عن تصنع ، وأن يأخذ وقوده من الإحساس لا من الخيال ، وأن يردنا إلى الصدق فيما نكتب وفيما نقول ، وأن يزيد في احترامنا لأهل الأفراح ، فهم إخوان أعزاء ، ولو تقلهم الفرح إلى آفاق الجنون . أنظر إلى هذا التمثال وذلك التمثال !

قال الفتى المصري :

ونظرت فرأيت تمثالين : أحدهما لعامل مكدود ، وثانيهما لفتى تحتضنه فتاة بأسلوب يمنع من وصفه أدب أهل الشرق ، فقد ضمته إليها كما يضم الحبيب المحبوب ، وما أحب أن أزيد ، وهل أستطيع القول بأن ذلك التمثال أفصح عن أشياء ينكرها الحياء ؟ من بلايا الزمن أن الكاتب لا يملك من الحرية ما يملك المثال !

كان هذان المنظران المتباينان يمثلان السلامة الوجودية أصدق تمثيل ، فالعامل المكدود هو مثال الحزن الشريف ، واحتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل ، وليس من العيب أن نفرح أو نحزن بإفراط وإسراف مادمنا صادقين . وهل تهجم الفتاة على الفتى إلا طاعةً لغريزة كريمة هي سر البقاء ؟ وهل نجد وجه العامل المكدود إلا في سبيل السعادة لأطفال يتمنى أبوهم أن يجهلوا معنى الفقر في أيام الشتاء : شتاء الزمان ؟

ثم عاد الحوار بعد لحيظات :

— حدثتك عما قرأنا لأناطول فرانس ، فهل تذكر ما سمعنا لعهد الطفولة فى سنتريس ؟

— لا أذكر من سنتريس غير أطياف بددتها أحلام باريس ؛ فماذا تريد ؟

— كان أهل سنتريس يقولون : « لما يخضرّ التوت ، البرد يموت »

— وما معنى ذلك ؟

— معناه أن الأوراق هى الوقاية من البرد !

— وإذن ؟

— وإذن تكون العواطف هى الوقاية من شتاء الزمان

— وما حال الشجرة التى لا ينخلع عنها الورق فى أى وقت ؟

— هى شجرة سعيدة أعاذها القدر من اختبار الأحباب ، ومزية هذه الشجرة أنها تتذوق ما فى الأرض والهواء من حيوية عارمة لا تلتفت إلى تغير الفصول إلا فى أندر الأحايين !

— وهل فى مقدورنا أن نكون مثل تلك الشجرة ؟

— إذا تخلقنا بأخلاقها

— وكيف ؟

— فى الأسبوع الرابع من آذار تظهر تباشير الورق الجديد فوق غصون الأشجار التى عانت آلام العري فى الشتاء ، وننظر فنرى الأشجار الصغيرة أورقت قبل الأشجار الكبيرة ، فنفهم أن الشباب يبدأ فى سرعة الإبراق ؛ وقياساً على ذلك يكون الشباب الدائم هو الذى يحمى بعض الأشجار من سقوط الورق فى الشتاء

— أيكون لهذا اللحظ دخل فى تقديس شجرة « الجميز » عند قدماء المصريين ؟

— ليس هذا التخريج بغريب ، وقد يضاف إليه أن لشجرة الجميز ميلاً إلى البر بالجيران ؛ فهى تمد فروعها لتمتعهم بالثمار والظلال بلا انتظار للجزاء !

— أراك تهرب من الجواب !

— وأراك لا تفهم المعاريض !

— أنا أحب أن أعرف كيف أحتفظ بالشباب

— إذا احتفظت بالعواطف

— وكيف أحتفظ بالعواطف ؟

— إذا احتفظت بالشباب !

— وكيف أحتفظ بثروة من أعدائها الليل والنهار ؟

— أنت أقوى من الليل والنهار ، إذا أردت ؟

— وكيف ؟

— إجعل الليل والنهار من خدامك

— كيف ؟ كيف ؟

— لا تضيع لحظة واحدة بلا عملٍ نافع ، فالعمل الموصول فن من السيطرة على شباب الزمان ؛ ألم تسمع بأخبار نوح ؟

— وما أخبار نوح ؟

— عاش فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً

— وهل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاماً ؟

— بقليل من الفهم تدرك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية الصورية ، وإنما يرجع إلى الكمية المعنوية ؛ وقد استطاع نوح باختراع « السفينة » أن ينقذ الإنسانية من « طوفان » الفناء ؛ فالعشرات من أعوامه تعد بالمئات . فاصنع صنع نوح ، لتعيش عمر نوح !

قال الراوى :

ثم رأيتنى أهتف بقول أحد الهائمين :

ولو أن عمرى عمر نوح وبعته بساعة وصل منك قلتُ كفانى

فالله وحده هو الذى يعلم قصة الورق والدوح ، وهو الذى يعلم ما أعانى من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد . وهو الذى يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح ، لينجو « الورق » من الافتضاح

إن عاد الربيع ، إن عاد ، فسوف نعقد « معاهدة ودية » لا ينقضها خريف ولا شتاء

وشبابى ، شباب الجسد والروح يحدثنى بأن الربيع إلى معاد

ويلطف الله بمن يقول :

لنجواك أستبقي شـــبابى فماطنى
كؤوس الهوى قبل ابيضاض المفارقِ

زكى مبارك